الطبعة الثـــانية

ربيع الآخر سنة ١٤٠٢ هـ ــ فبراير سنة ١٩٨٢ م

جميع الحقوق محفوظة

مطابع
دار التراث العربي
ت ٩٣٦١٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

أرأيت الى الأرض الخاشعة الهامدة ، ينزل الله عليها المـاء ، فتهتز وتربو وتحيا بعد موتها ، وتنبت من كل زوج بهيج !

كذلك كانت الأمة الاسلامية فى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى ، وقبل ظهور حركة الاخوان المسلمين : دمرت الخلافة ، وهى آخر مظهر للتجمع تحت راية العقيدة الاسلامية ، ومزق الوطن الاسلامى شر ممزق بين براثن المستعمرين ، من بريطانيين وفرنسيين وغيرهم ، حتى هولندا التى لم تكن تتجاوز بضعة ملايين • كانت تحكم نحو مائة مليون فى أندونيسيا ! وعطلت أحكام الاسلام ، واتخذ القرآن مهجورا ، وسيطرت القوانين الوضعية والتقـاليد الغربية ، والقيم الأجنبية على حيـاة المسلمين ، وبخاصة الطبقة المثقفة منهم ، نتيجة لهيمنة الاستعمار الكافر على أزمة التعليم والتوجيه والتأثير ، فتخرجت أجيال ، تحمل أسماء اسلامية ، وعقولا أوروبية •

وانضم هذا الفساد الذى وفد مع الاستعمار الدخيل ، الى الفساد الذى خلفته عصور الانحطاط والتخلف ، فازداد الطين بلة ، والداء علة •

وشاء الله الذى تكفل بحفظ القرآن ، وبقاء الاسلام ، واظهاره على الدين كله ، أن يجدد لهذا الدين شبابه ، ويعيد لجسد هذه الأمة الهامد روحه وحياته من جديد • فكانت دعوة الاخوان المسلمين ، وكان **حسن البنـا** مؤسس هذه الحركة « الكبرى » التى مضى عليها خمسون عاما تركت فيها « بصمات » وآثارا فى كل مجال وفى كل مكان ، داخل العالم الاسلامى وخارجه •

ولست أكتب هذه الصحائف مؤرخا لحركة الاخوان ومبلغ تأثيرها فى الحياة المصرية والعربية والاسلامية ، فهذا جهد ينوء به فرد مهما

تكن قدرته ووسائله • وانما هو واجب الجماعة الذى فرطت فيه حتى اليوم ، وان كانت الضربات المتلاحقة التى أصابت الجماعة فى كل العهود ، تجعل لها بعض العذر لا كله •

انما أكتب هنا عن جانب واحد من جوانب هذه الحركة الضخمة ، وهو : جانب التربية ، كما فهمه الاخوان من الاسلام ، وكما طبقوه •

ولست أحاول هنا الاستقصاء والاحاطة ، وانما أكتفى بابراز المعالم ، واعطاء الملامح ، التى تكفى لايضاح فكرة الجماعة عن التربية وجهودها فى ممارستها ، ونقلها الى واقع حى يتمثل فى بشر أحياء •

ولا يخفى على دارس أو مراقب أن حركة الاخوان تمثل — فى الدرجة الأولى — مدرسة نموذجية ناجحة للتربية الاسلامية الحقة ، وأن أهم ما حققته هو تكوين جيل مسلم جديد ، يفهم الاسلام فهما صحيحا ، ويؤمن به ايمانا عميقا ، ويعمل به فى نفسه وأهله ويجاهد لاعلاء كلمته ، وتحكيم شريعته ، وتوحيد أمته •

وقد ساعد على هذا النجاح جملة عوامل :

١ — ايمان لا يتزعزع بأن التربية هى الوسيلة الفذة لتغيير المجتمع ، وبناء الرجال ، وتحقيق الآمال • وكان امام الجماعة الشهيد حسن البنا يعلم أن طريق التربية بعيدة الشقة ، طويلة المراحل • كثيرة المشاق • ولا يصبر على طولها ومتاعبها الا القليل من الناس • من أولى العزم • ولكنه كان يعلم كذلك علم اليقين ، أنها وحدها الطريق الموصلة ، لا طريق غيرها ، فلا بديل لها ، ولا غنى عنها • وهى الطريق التى سلكها النبى صلى الله عليه وسلم ، فكون بها الجيل الربانى النموذجى الذى لم تر عين الدنيا مثله ، والذى تولى بعد ذلك تربية الشعوب وقيادتها الى الحق والخير •

٢ — منهاج للتربية محدد الأهداف ، واضح الخطوات ، معلوم المصادر ، متكامل الجوانب ، متنوع الأساليب ، قائم على فلسفة بينة المفاهيم ، مستمدة من الاسلام دون سواه •

٣ — جو جماعى ايجابى هيأته الجماعة ، من شأنه أن يعين كل أخ مسلم على أن يحيا حياة اسلامية عن طريق الايحاء والقدوة والمشاركة الوجدانية والعملية ، والمرء قليل بنفسه كثير باخوانه ، ضعيف بمفرده ، قوى بجماعته ، فالجماعة قوة على الخير والطاعة ، وعصمة من الشر والمعصية ، وفى الحديث : « يد الله مع الجماعة » ، « وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

٤ — قائد مرب بفطرته ، وبثقافته ، وبخبرته . وهبه الله شحنة ايمانية نفسية غير معتادة ، أثرت فى قلوب من اتصل به ، وأفاض من قلبه على قلوب من حوله ، وكان أشبه بـ « المولد » أو « الدينامو » الذى ملأ منه الآخرون « بطاريات » قلوبهم . والكلام اذا خرج من القلب دخل القلوب بغير استئذان ، واذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان . فصاحب القلب الحى هو الذى يؤثر فى مستمعيه ومريديه . أما صاحب القلب الميت فلا يستطيع أن يحيى قلب غيره ، ففاقد الشىء لا يعطيه ، وليست النائمة كالثكلى .

٥ — عدد من المربين المخلصين ، الأقوياء الأمناء ، آمنوا بطريقة القائد ، ونسجوا على منواله ، أثروا فى تلاميذهم ، ثم أصبح هؤلاء أساتذة لمن بعدهم .. وهكذا .

ولست أعنى بالمربين هنا : خريجى المعاهد العليا للتربية ، أو حملة الماجستير والدكتوراه فيها ، وانما أعنى أناسا ذوى « شحنة » عالية من الايمان ، وقوة الروح ، وصفاء النفس ، وصلابة الارادة ، وسعة العاطفة ، والقدرة على التأثير فى الآخرين .. وربما كان أحد هؤلاء مهندسا أو موظفا بسيطا أو تاجرا أو عاملا ، ممن لا علاقة له بدراسة أصول التربية أو مناهجها .

٦ — وسائل مرنة متنوعة ، بعضها فردى ، وبعضها جماعى ، بعضها نظرى ، وبعضها عملى ، بعضها عقلى ، وبعضها عاطفى ، بعضها ايجابى ، وبعضها سلبى ، من دروس الى خطب ، الى محاضرات ، الى ندوات ، الى أحاديث فردية ، ومن شعارات تحفظ ، الى هتافات تدوى ، الى أناشيد تؤثر بكلماتها ولحنها ونغمها .. ومن لقاءات دورية لمجموعات مختارة فى البيوت على القراءة والثقافة والعبادة والأخوة . سميت كل مجموعة

منها « أسرة » ايحاء بمعنى الألفة والمودة بين أبناء العائلة الواحدة ، الى لقاءات أخرى فى شعبة الجماعة غالبا ، موعدها الليل ، تتجدد فيها العقول بالثقافة ، والقلوب بالعبادة ، والأجسام بالرياضة ، وسميت هذه « الكتيبة » ايحاء بمعنى الجهاد ، الى غير ذلك من الوسائل والطرائق التى تهدف الى بناء الانسان المسلم المتكامل .

وكل تربية انما تتكيف بحسب الغاية منها حتى فى الحيوانات ، فالبقرة التى تربى للبن ، غير التى تربى للحم ، غير التى تربى للحرث .

وكذلك الانسان والتربية . فتربية الانسان الوجودى ، غير تربية الانسان الشيوعى ، وهما غير تربية الانسان البورجوازى ، أو الرأسمالى ، وكلها غير تربية الانسان المسلم . وتربية المسلم التقليدى غير تربية المسلم الايجابى .. تربية المسلم فى مجتمع يحكمه القرآن ، وتسيطر عليه تعاليم الاسلام ، غير تربية المسلم فى مجتمعات تصطرع فيها الجاهلية والاسلام ، ويتنازعها الكفر والايمان ، والتحلل والالتزام .

أجل .. ان تربية المسلم الذى يكتفى من الاسلام بالصلاة والصيام والذكر والدعاء ، واذا ذكر أمامه حال الاسلام والمسلمين اقتصر على الحوقلة والاسترجاع ، غير تربية المسلم الذى يغلى صدره غيرة على الاسلام ، كما يغلى القدر فوق النار ، ويذوب قلبه أسى على المسلمين كما يذوب الملح فى المـاء . ثم يحول ذلك الأسى وتلك الغيرة الى قوة دافعة للعمل ، وانطلاقة باعثة على التغيير .

هذا هو المسلم المنشود ، الذى لا يستسلم للواقع بل يعمل على تغييره كما أمر الله ، ولا يعتذر بالقضاء والقدر ، بل يؤمن بأنه هو قضاء الله الغالب ، وقدره الذى لا يرد . انه المسلم الذى يعمل لاقامة رسالة ، وبناء أمة ، واحياء حضارة .

« رسالة امتدت طولا حتى شملت آماد الزمن ، وامتدت عرضا حتى انتظمت آفاق الأمم ، وامتدت عمقـا حتى استوعبت شـئون الدنيا والآخرة »(١) .

---

(١) من كلمات حسن البنا فى مقاله « من وحى حراء » بجريدة الاخوان المسلمون اليومية .

وأمة خصها الله بخير كتاب أنزل ، وأعظم نبى أرسل ، جعلها خير أمة أخرجت للناس ، وجعلها أمة وسطا فى كل شىء ، وأهلها للأستاذية والشهادة على الناس .

وحضارة ربانية انسانية عالمية أخلاقية ، جمعت بين العلم والايمان ، ومزجت بين المـادة والروح ، ووازنت بين الدنيا والآخرة ، وحفظت للانسان خصائص الانسان ، وكرامة الانسان .

كانت تربية هذا المسلم هى المهمة الأولى لحركة الاخوان ، لأنه هو وحده أساس التغيير ، ومحور الصلاح والاصلاح . ولا أمل فى استئناف حياة اسلامية ، أو قيام دولة اسلامية ، أو تطبيق قوانين اسلامية ، بغيره .

وكان للتربية الاسلامية فى فهم الاخوان وتطبيقهم خصائص بارزة ، ومميزات ظاهرة أهمها : التأكيد على الربانية .. التكامل والشمول .. الاعتدال والتوازن .. الايجابية والبناء .. الاخوة والروح الجماعية .. التميز والاستقلال . وسنحاول هنا أن نخص كلا منها بحديث ، بقدر ما يتسع المقام .. وبالله التوفيق .

د. يوسف القرضاوى

الرَّبَّانِيَّة

الجانب الربانى أو الايمانى فى التربية الاسلامية كما فهمها الاخوان وطبقوها هو أهم جوانب التربية وأشدها خطرا وأعمقها أثرا ، وذلك لأن أول هدف للتربية الاسلامية هو تكوين الانسان المؤمن .

والايمان فى الاسلام ليس قولا يقال ولا دعوى تدعى ، انما هو حقيقة يمتد شعاعها الى العقل فيقتنع ، والى العاطفة فتجيش ، والى الارادة فتتحرك وتحرك ، انه كما جاء فى الأثر — ما وقر فى القلب وصدقه العمل « **انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** »(١) ، ليس الايمان فى الاسلام مجرد معرفة ذهنية محضة كمعرفة المتكلمين والفلاسفة ، ولا مجرد تذوق روحى مجنح كتذوق المتصوفة ، ولا مجرد سلوك تعبدى كسلوك النساك والمتزهدين . انه مجموع هذا كله سالما من الشطط والافراط والتفريط ، مضافا اليه ايجابية تعمر الأرض بالحق ، وتملأ الحياة بالخير وتقود الانسان الى الرشد .

لقد حاول الاخوان فى تربيتهم أن يجمعوا ما فرقه المتكلمون والصوفية والفقهاء من عناصر الايمان الحق ، وأن يجددوا ما أبلاه المسلمون فى الأعصر الأخيرة من معانى الايمان الحق ، فعادوا الى المنابع الصافية يستمدون منها حقيقة الايمان الذى يجب أن يربى عليه الاخوان . ايمان الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، بشعبه التى بلغت بضعا وستين أو بعضا وسبعين ، وألف فيه الحافظ البيهقى كتاب « شعب الايمان » .

ايمان الصحابة ومن تبعهم باحسان من سلف الأمة الذين شمل ايمانهم اعتقاد القلب واقرار اللسان وعمل الجوارح وصبغ ايمانهم حياتهم كلها فى المسجد وفى البيت وفى المجتمع ، فى الخلوة والجلوة ،

---

(١) الحجرات : ١٥

وفى الليل والنهار ، فى العمل للدنيا ، وفى العمل للآخرة . امتاز الايمان فى تربية الاخوان بهذا الامتداد وبهذا العمق ، وامتاز كذلك بحيويته النابضة ، وقوته الدافعة ، وحركته الفعالة ، انه شعلة تتأجج ، وتيار يتدفق ، ونور يضيء ، ونار تحرق .

وعماد التربية الربانية هو القلب الحى الموصول بالله تبارك وتعالى ، الموقن بلقائه وحسابه ، الراجى لرحمته ، الخائف من عقابه ، فحقيقة الانسان ليست فى هيكله المادى والأجهزة والخلايا والعظام والعضلات ، انما هى فى تلك اللطيفة الربانية التى تسكن هذا الهيكل ، وتحركه وتأمره وتنهاه ، انها المضغة التى اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب . القلب أو الروح أو الفؤاد — سمه ما شئت — هو ذلك الكائن الواعى الذى يصل الانسان بأعماق الحياة ، وأسرار الوجود ، وينتقل به من الأرض الى السماء ومن الكون الى المكون ، ومن عالم الفناء الى عالم الخلود .

القلب الحى هو موضع نظر الله تعالى ، ومهبط تجلياته وأنواره « ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » ، وهو المستند الوحيد الذى يقدمه العبد لربه يوم القيامة وسيلة للنجاة **« يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم »**(١) ، وبدون هذا القلب العامر بالايمان ، المشرق باليقين ، يكون الانسان ميتا وان عده الاحصاء فى الأحياء **« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها »**(٢) .

من أجل هذا عمدت التربية الاخوانية الى احياء القلوب حتى لا تموت ، وعمارتها حتى لا تخرب ، وترقيقها حتى لا تقسو ، فان قسوة القلب وجمود العين عقوبة يستعاذ بالله من شرها ، ولهذا ذم الله بنى اسرائيل فقال :**« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية »**(٣) وفى موضع آخر خاطبهم فقال : **« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة »**(٤) وعاتب الله أهل الايمان فقال :

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ (٢) الأنعام : ١٢٢
(٣) المائدة : ١٣ (٤) البقرة : ٧٤

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطـــال عليهم الأمد فقست قلوبهم »(١) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع . وكانت رسائل الأستاذ البنا ومقالاته وأحاديثه العامة فى المركز العام ، والخاصة فى لقاءات الأسر والكتائب والشعب — دائمة الطرق لأبواب القلب الانســـانى حتى يتفتح على معرفة الله ، ويرجوه ويخشاه ، وينيب اليه ويتوكل عليه ويوقن بما عنده ويأنس بحبه والرضا عنه ، ويسكن الى قربه ، ويطمئن بذكره **« ألا بذكر الله تطمئن القلوب »(٢) .**

وبهذا يستسهل القلب المؤمن الصعب ، ويستمرىء المر ، ويستعذب العذاب ، ويستهين بالمتاعب والمشقات ، بل يستلذها ما دامت لله وفى سبيل الله ، كما يستلذ كل محب متاعب رحلته وينسى جوعه وظمأه ، اذا كانت الغاية والعاقبة لقاء الحبيب ، على نحو ما ذكر ابن القيم رحمه الله :

لهـــا أحاديث من ذكـــــراك تشـــــغلها
عن الطعـــــــام وتلهيهـــــــا عن الزاد
اذا اشـــتكت من كلال الســـير أوعدها
روح القـــــدوم فتحيـــا عنـــد ميعـــاد

وقلب الانسان كجسمه يحتاج الى ثلاثة أشياء :

(ا) الى وقاية ليسلم .
(ب) والى غذاء ليحيا .
(جـ) والى علاج ليشفى .

وأول ما يجب وقاية القلب منه ، واعطاؤه المصل الواقى من شره ، هو : حب الدنيا ، فهو رأس كل خطيئة ، وأصل كل داء ، والمصل الواقى

---

(١) الحديد : ١٦ (٢) الرعد : ٢٨

منه هو اليقين بالآخرة ، وتذكر مثوبة الله ، والموازنة بين تفاهة ما عندنا وعظمة ما عند الله — ان جازت الموازنة بين الفانى والباقى — **« ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق »**(١) .

وحسب المؤمن أن يقرأ هذه الموازنة أو المفاضلة صريحة واضحة فى كتاب ربه : **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد »**(٢) .

وهناك وراء هذه الشهوات المادية — شهوات البطون والفروج ، وحب المال والبنين — ما هو أشد خطرا وهو شهوات القلوب ، وأهواء النفوس ، والهوى شر اله عبد فى الأرض **« ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله »**(٣) .

شهوة الجاه وحب السيطرة ، والتألّه على خلق الله ، وابتغاء الشهرة والمحمدة ، والسعى وراء تصفيق العامة ، أو تملق الخاصة ، وما الى ذلك هى الوباء القتال الذى يصيب القلوب فيعميها ويصمها ، أو يوبقها ويقتلها . وهى التى سماها الامام الغزالى فى احيائه : « المهلكات » إهتداء بالحديث النبوى الذى قال : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

ومن المؤسف أن كثيرين لم يلتفتوا الى هذه المهلكات المعنوية للأفراد والجماعات ، ووجهوا كل اهتمامهم الى المهلكات الظاهرة من السرقة والزنا وشرب الخمر ، وهى من الموبقات قطعا ، ولكنها أقل ضررا ، وأيسر خطرا .

والحقيقة أن وراء كل هذه الموبقات الحسية داء نفسيا علمه من علمه وجهله من جهله . ومن ثم اهتمت الدعوة من أول يوم بتخليص

---

(١) النحل : ٩٦ (٢) آل عمران : ١٤ ، ١٥
(٣) القصص : ٥٠

النفوس من شوائبها الدنيوية ، وجعلها لله قبل كل شيء ، وقطع أطماع النفس عن كل مغنم أو مظهر دنيوى لا يغنى عند الله شيئا ، واتجهت الى الربانية بكل قوتها ، وعبأت لها الأفكار والمشاعر ، كما هيأت لها المناخ والوسائل .

كان هذا الجانب الايمـانى أو الربانى يحتل فى مناهج التربية الاخوانية مساحة واسعة ، وينال اهتماما بالغا ، فالدعوة دعوة ربانية قبل كل شيء ، والدعوات الربانية انما توجه وجهها الى الله وحده ، وتجعل رضاه غاية المراد :

اذا صـح منـك الود فالكل هـين
وكل الذى فـوق الـتراب تراب

والله تعالى لا ينظر الى الصور ، ولكن الى القلوب ، ولا يجازى بحجم العمل الظاهر ، ولكن بالاخلاص الذى وراءه ، فالله تعالى لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا لوجهه ، وهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والرياء هو الشرك الخفى . فهو سبحانه لا يحب العمل المشترك ، ولا القلب المشترك ، العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه **« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احـدا »**(١) . ولا غرو أن جعلت شعارها « الله أكبر ولله الحمد » وجعلت أول هتافاتها التى تلقنها لأتباعها وتغرس بها فى عقولهم وعواطفهم أهدافها ومفاهيمها الكبرى : الله غايتنا .

وفى رسالة التعاليم يجعل الشهيد البنا الركن الثانى من أركان « البيعة » بعد « الفهم » المنشود للاسلام فى حدود « الأصول العشرين » المشهورة هو « الاخلاص » ويفسر الاخلاص بقوله : « أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر الى مغنم أو مظهر أو جاه أو تعب أو تقدم أو تأخر . وبذلك يكون جندى فكرة وعقيدة لا جندى غرض ومنفعة **« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت »**(٢) .

---

(١) آخر سورة الكهف : ١١٠ (٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣

والعارفون بأمراض القلوب وآفات النفوس يعلمون أن من أخطر ما يتعرض له المشتغلون بالدعوة الافتتان بالشهرة ، والتطلع الى الصدارة وحب الظهور والزعامة • ولهذا حذر الرسول الكريم من حب الجاه والمـــال ومن الشرك الخفى ، وهو الرياء ، ونوه القرآن والسنة بالمخلصين الذين يعملون ما يعملون « ابتغاء وجه الله » لا يريدون من أحد جزاء ولا شكورا ، وأشاد الرسول بالمسلم الايجابى الصامت الذى يؤدى واجبه وهو غامض فى الناس لا يشار اليه بالأصابع وقال : « رب أشعث أغبر ذى طمرينلا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » و « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، ان كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وان كان فى الساقة كان فى الساقة » ورحم الله خالدا سيف الله ، الذى عمل قائدا فأحسن ، وعمل جنديا فما فرط ولا قصر •

وقد أكد الاخوان فى تربيتهم هذه المعانى ، وحذروا كل التحذير من حب الظهور الذى طالمـــا قصم الظهور •

لقد كان من ثمرات هذه التربية أن ظهر فى الجماعة كثير من الجنود المجهولين ، أو كما سماهم الحديث النبوى الذى رواه الترمذى : « الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين ان غابوا لم يفتقدوا ، وان حضروا لم يعرفوا » وأن وجدنا رجالا فيهم قبس من الأنصار : يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع •

كم من رجال بذلوا من أموالهم وأنفسهم دون أن يذكروا أسماءهم ، أو يقرعوا الطبول لأشخاصهم ، وكم من شباب قاتلوا فى فلسطين والقناة وقدموا من روائع البطولات دون أن يلتمسوا من أحد جزاء أو شكورا ، ودون أن يعلنوا عن أنفسهم أو يذكروا ما صنعوه خشية أن يحبط عملهم بالعجب أو الغرور •

وكان بعد ذلك على الحركة أن تعمل على غذاء القلوب بعد وقايتها • وغذاء القلوب انما يتم بدوام الصلة بالله تعالى ، والقيام بذكره وشكره وحسن عبادته •

من هنا كان من المقومات الأساسية التى قامت عليها التربية الربانية الاخوانية : العبادة لله تعالى • فهى الغاية الأولى من خلق المكلفين **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »**(١) والعبادة — بالمعنى العام — اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال ، ولكنا نقصد به هنا العبادة بالمعنى الخاص ، وهو التنسك والتقرب لله تعالى باقامة شعائره وذكره وشكره •

ومن العناصر الأساسية التى حرص الاخوان عليها فى العبادة :

١ — التزام السنة ، واجتناب البدعة ، فان كل بدعة ضلالة ، وقد ألف فى هذا الأخ الجليل الشيخ سيد سابق كتابه « فقه السنة » وقدم له الامام الشهيد ، وأثنى عليه • وقبل ذلك نشر فقرات منه فى مجلة الاخوان الأسبوعية ، والكتاب يعتمد على الأدلة الشرعية ، ويمثل الاتجاه الفقهى للاخوان •

٢ — الاهتمام بالفرائض ، فان الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة • وفى الحديث القدسى الذى رواه البخارى : « ما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى من أداء ما افترضته عليه » فلا تهاون ولا تساهل فى ترك الفريضة بحال •

٣ — الترغيب فى صلاة الجماعة ، فهى اما فرض عين أو فرض كفاية أو سنة مؤكدة على اختلاف المذاهب ، ولهذا حين ذهب الاخوان الى معتقل الطور ، سرعان ما جعلوا فى كل قسم منه مسجدا • يجتمعون فيه لكل صلاة ، كما يؤدون فيه فريضة الجمعة . ولا زلت أذكر صوت الشيخ محمد الغزالى وهو يؤمنا فى كل صلاة ، ويقنت فى الركعة الأخيرة داعيا : « اللهم فك بقوتك أسرنا ، واجبر برحمتك كسرنا . وتول بعنايتك أمرنا • اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ••• » •

٤ — الترغيب فى التطوع ، ففى الحديث القدسى السابق : « وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ••• » وكم نشأ فى رحاب هذه الدعوة رجال صوامون قوامون **« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون**

---

(١) الذاريات : ٥٦

ربهم خوفا وطمعا »(١) وصفهم الناس كما وصفوا الصحابة وتابعيهم من قبل بأنهم : رهبان الليل وفرسان النهار • وقال شاعرهم بلسانهم فى نشيد « هو الحق » أو نشيد « الكتائب » الذى يحفظه الجميع :

رقـــاق اذا ما الـــدجى زارنا
غمـــرنا محاريبنـــا بالحـــزن
وجنـــد شـــداد ، فمن رامنـــا
لبـــأس رأى أســـدا لا تهن

وفى هذا وضع الأستاذ المرشد رسالة « المناجاة » بين فيها فضل التهجد والصلاة فى الأسحار ومنزلة الدعاء والاستغفار ، وما ورد فى ذلك من آيات وأحاديث وآثار • وطالمـا أشاد رحمه الله بمتعة التعبد فى جوف الليل ، والقيام لله والناس نائمون ، والسهر فى طاعته والناس فى لهوهم غارقون ، وبكاء الصالحين من خشية الله حيث يضحك المفرطون • وطالمـا تمثل بقول الشاعر فى مناجاة ربه :

ســهر العيــون لغــير وجهــك باطل
وبكاؤهن لغــير فقـــدك ضـــائع

وقول الآخر :

ان قلبـــــا أنت ســـــاكنه
غـــير محتـــاج الى الســـرج
وجهـــك المـــأمول حجتنـــا
يوم يأتى النـــاس بالحجـــج

أثرت هذه المعانى والتأكيد عليها فى عقول الاخوان وقلوبهم ، فنشأ جيل ربانى يسهر ليله لله ، ويظمىء نهاره لله ، لا يمنعه برد الشتاء عن القيام ، ولا هجير الصيف عن الصيام ، لأنه يجد فى عبادة ربه نشوة ، وفى طاعته لذة ، وفى الوقوف بين يديه سعادة ، كتلك التى عبر عنها أحد الصالحين قديما بقوله : لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف •

---

(١) السجدة : ١٦

وما برحت أذكر صفوف المتهجدين فى معتقل الطور ، حيث كان يمر بعض الاخوان فى الثلث الأخير من الليل ينادى بصوت مؤثر :

يا نائمـــا مســـتغرقـ فى المنـــام
قـــم فاذكر الحى الذى لا ينـــام

مـــولاك يدعـــوك الى ذكـــره
وأنت مشـــغول بطيب المنـــام !

هناك يستيقظ النائم ، ويخف المتثاقل ، وينهض المتكاسل ، ليتعرض لنفحات الله فى هـــذا الهزيع المبـــارك من الليل عسى أن تناله بركة « المستغفرين بالأسحار » .

ان مدرسة الليل — بما فيها من صلاة ودعاء وقرآن وترتيل ، وبما تهيىء للأرواح من زاد ، وللقلوب من عتاد — هى التى تخرج المسلم الذى يحتمل أعباء الرسالة ، وميراث النبوة بقوة وأمانة كما حملها النبى الكريم ، الذى خاطبه الله منذ اشراقة الدعوة فى عهـــدها المكى : **« يا أيها المزمل . قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . انا سنلقى عليك قولا ثقيلا »**(١) .

وفى هذه المدرسة — مدرسة الليل والقرآن — تخرج شباب ربانيون أعادوا لنا سيرة السلف من جديد .. رأينا من هؤلاء الشباب الربانيين من التزم صيام الاثنين والخميس طوال حياته ، نفعنا الله بهم ، ومن ظل على هذه السنة وهو فى ميدان الجهاد عملا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من صام يوما فى سبيل الله ، الا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا » رواه البخارى وغيره .

ولقد أصيب مرة أحد هؤلاء الاخوة المجاهدين فى يوم صيامه ، فجىء له وهو فى النزع الأخير بشربة ماء ، فقـــال لهم : دعونى ، نى أريد أن ألقى ربى وأنا صائم !

---

(١) المزمل : ١ — ٥

٥ — الترغيب فى ذكر الله : فالله تعالى يقول : **«يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا • وسبحوه بكرة وأصيلا »**(١) • وخير الذكر تلاوة القرآن كلام الله الحكيم ، فلتاليه بكل حرف عشر حسنات • ومن وصايا الاخوان أن يكون لكل أخ ورد يومى يتلوه من كتاب الله ، وأن يحرص على حسن التلاوة بمعرفة أحكام التجويد ، وأن يقرأه بتدبر وتأمل ، فلو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن •

وأنواع الذكر وصيغه كثيرة منها : التسبيح . والتحميد ، والتهليل ، والتكبير ، والدعاء ، والاستغفار ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم •

وقد حرصت التربية الاخوانية على التزام الذكر بالمأثور فى هذا كله لعدة أمور :

١ — أن الصيغ المأثورة لا تدانيها صيغة أخرى لا فى مضمونها ولا فى أسلوبها ، فهى آية من آيات الله فى الشمول والبلاغة والوضوح وقوة التأثير • وهذا من بركات النبوة •

٢ — أن كلام غير المعصوم قد يدخله شىء من الغلو أو التقصير ، وبهذا يكون عرضة للقيل والقال ، ودع ما يريبك الى ما لا يريبك •

٣ — أن فى الذكر بالمأثور أجرين : أجر الذكر ، وأجر الاتباع • ولا يليق بالعاقل أن يضيع أجر الاتباع بلا مسوغ •

ومن ثم عنى الامام الشهيد بوضع رسالة تشمل مجموعة من الأذكار والأدعية الواردة فى السنة سماها « المأثورات » اقتبسها من مثل « الأذكار » للامام النووى ، و « الكلم الطيب » لشيخ الاسلام ابن تيمية •

---

(١) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢

ولا يكاد أخ من الاخوان الا وعنده هذه الرسالة ، وقل من لا يحفظها ويردد أذكارها صباح مساء • ومن الاخوة من اتخذ لنفسه وسيلة تذكره بكل دعاء فى مناسبته ، ففى غرفة النوم علق لوحة فيهـا أذكار النوم واليقظة ، وفى حجرة الطعام يعلق أخرى فيها أدعية الأكل والشرب ، وعند الباب دعاء الدخول والخروج ، وفى سيارته دعاء الركوع ، وهكذا ••

ومن الوسائل التى ابتكرها الاخوان لايقاظ الشعور الدينى ، وتنمية الوازع الذاتى ، وتغليب النفس اللوامة على النفس الأمارة بالسوء : ما سمى بـــ « جدول المحاسبة » وهو جدول مطبوع يتضمن أسئلة موجهة من الانسان الى نفسه ، وعليه أن يجيب عنها بـــ « نعم » أو « لا » ليعرف مدى محافظته أو تقصيره • ويكون ذلك عندما يأوى الى فراشه ، ليتبين حصيلة يومه • وهذه المحاسبة تتم بينه وبين نفسه ، لا رقيب عليه الا الله تعالى •

من هذه الأسئلة :

هل أديت الصلوات فى أوقاتها ؟

هل أديتها فى جماعة ؟

هل تلوت وردك اليومى من القرآن ؟

هل قرأت أدعيتك المـــأثورة ؟

هل زرت أخا لك فى الله •• الخ •• الخ •

وكان من ثمرات هذه التربية الايمانية الربانية أن قدم الاخوان ما قدموا لأوطانهم وفى سبيل دعوتهم دون أن يمنوا على أحد ، بل الله يمن عليهم أن هداهم للايمان ، وان صبت عليهم سياط العذاب فى محن متلاحقة فى عهد الملكية ثم فى عهد الناصرية (١٩٤٨ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٥) فما وهنوا لمـــا أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا • حتى أن منهم من نهشته الكلاب ، ومن شوى ظهره بالحديد المحمى ، ومن مزقت بدنه الكرابيج ، ومن قضى فى السجن عشرين عاما كاملة فى عهد الثورة ، ومنهم من قتل جهرة ضربا بالرصاص ، كما فى مذبحة ليمان طرة ، ومنهم من قتل خفية بالسياط ، وهم عشرات يجب أن يماط عنهم اللثام ،

ويعرفهم التاريخ ، ومنهم من حكم عليه بالاعدام شنقا بغير حق ، فلا هو كفر بعد اسلام ، ولا هو زنا بعد احصان ، ولا هو قتل نفسا بغير نفس ، كل ذنبه أن يقول : ربى الله ، ودستورى القرآن !!

ليس العجب أن يذنب الانسان ، انما العجب أن يتمادى فى الذنوب ولا يتوب • وقد أذنب آدم فتاب الله عليه وغفر له « **وعصى آدم ربه فغوى • ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** »(١) ولكن ابليس أذنب فلم يغفر له ، لأنه لم يتب من ذنبه ، ولم يعتذر الى ربه ، بل أبى واستكبر عن الخضوع للأمر ، وقال : « **أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين** »(٢) على حين قال آدم وزوجه : « **ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** »(٣) •

كان ذنب آدم وزوجه نتيجة غفلة طارئة ، وشهوة عارضة ، أعقبتها توبة نصوح ، فتقبلها الله وتاب عليه • وكان ذنب ابليس نتيجة تمرد على الله ورفض لأوامره ، واستكبار عن طاعته ، فطرده الله مذموما مدحورا ، عليه اللعنة الى يوم الدين •

والاخوان بشر من بنى آدم ، فلا غرابة أن نجد منهم الخطائين ، الذين يخالفون ما به أمروا ، أو يرتكبون ما عنه نهوا ، ولكن خير الخطائين التوابون المستغفرون ، وهذا هو العلاج الذى تحتاج اليه القلوب لتشفى :

التوبة النصوح ، والاستغفار الصادق ، ولا سبيل الى ذلك الا بالشعور بالذنب ، وخشية العقوبة من الرب ، والتضرع اليه بصدق العبودية ، وذل الاعتراف •

ومع هذا كله وهب الاخوان كل ما أصابهم من أذى ، وما قدموه من تضحيات لله جل جلاله • فقد باعوا أنفسهم وأموالهم لله ، واشترى الله تعالى منهم ذلك بأن لهم الجنة ، وهم لم يستقيلوا هذه الصفقة أو يتراجعوا عنها ، ولن يفعلوا ان شاء الله ، ولن يقبلوا دون الجنة بدبلا •

---

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢ (٢) الأعراف : ١٢
(٣) الأعراف : ٢٣

ولهذا لم يفكر الاخوان فى الانتقـــام ممن سجنوهم وعذبوهم وصـــادروا أموالهم ، وجوعوا أسرهم ، وقتلوا منهم من قتلوا سرا وعلانية ، ولم يسمع أحد أنهم اختطفوا واحدا من جلاديهم ، وأطلقوا عليه الرصاص فى عينه اليمنى أو اليسرى ، وكان فى امكانهم أن يفعلوا لو أرادوا وفيهم المدربون الذين أرعبوا اليهود ، وأقضـــوا مضاجع الانجليز ، ولكن تربيتهم لم تسمح لهم بهذا اللون من التفكير ، بل تركوا خصومهم لله ، فانتقم منهم واحدا بعد الآخر ، فى الدنيا قبل الآخرة . وما عند الله أشد وأخزى . على أن ما يريدونه أكبر وأعمق من الانتقام من أفراد صغروا أم كبروا .

ولقد قدر للاخوان أن يروا بأعينهم مصاير الكثيرين من جلاديهم . ذلا وهوانا أو جنونا وسقاما أو قتلا ونكالا ، حتى أن الأستاذ الهضيبى — رحمه الله على كبر سنه — عاش حتى رأى الذين سجنوه أنفسهم يدخلون السجن معه ومع اخوانه ، غير أنهم دخلوه وهم يبكون بكاء الأطفال ، على حين استقبله الاخوان بابتسامة الأبطال .

ليس معنى هذا أن كل الاخوان كانوا على هذا المستوى من الربانية الصافية ، ولكن أقول بصدق : ان طابع الربانية المشرق كان هو الغالب عليهم ، والمهيمن على أكثرهم ، فالطاعة فيهم هى القاعدة ، والمعصية هى الشذوذ ، فقد شغلوا بالآمال الكبيرة عن الشهوات الصغيرة ، وبأحلام الآخرة عن مطامع الدنيا . وبالقضايا العامة عن المنافع الخاصة . ومن أغواه شيطانه يوما فزلت قدمه ، سرعان ما يستيقظ ضـــميره ، ويصحو قلبه ، ويرجع الى باب ربه يقرعه نادما باكيا تائبا . ولا زلت أذكر شابا كان فى عنفوان شبابه ، قادته غريزته فى لحظة ضعف عارضة ، وغفلة قلب طارئة ، فتورط فى المعصية : ثم أفاق فجأة ليجد نفسه قد تلوث بعد طهارة ، وانحرف بعد استقامة ، وغوى بعد رشـــد ، وأحس بمرارة المعصية بعد أن ذاق حلاوة الطاعة ، فاعتكف فى بيته أياما يبكى على نفسه ، ويتقلب على جمر الغضا ، ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت عليه نفسه ، فلم يعد يلقى أحدا ، ولا يخرج من حجرته ، حياء من ربه ، وخجلا من نفسه ، وفرارا من اخوانه . مع أن أحدا منهم لم يعلم بما حدث له غيرى ، لولا أن كتبت اليه ،